منهج القرآن في مواجهة الإلحاد

د. محمّدعلي محيطي أردكان*

الخلاصة

المجتمع الإنسـانيّ في بعده المعرفيّ عبارةٌ عن مزيجٍ من أفكارٍ ومعتقداتٍ مختلفةٍ، بـل متعارضةٌ أحيانًا. وتعدّ مفردة الإلحاد وما يرادفها من مصطلحاتٍ إحدى المفاهيم المهمّة في شبكة المعارف القرآنيّة. ومن الضروريّ اتّباع الأسلوب الصحيح في التعامل مـع الناس الّذين يحملـون عقائد تخالف عقائدنا وعلى الضـدّ منها؛ وذلك من أجل الوصول إلى علاقاتٍ صحيحةٍ وحياةٍ سليمةٍ في المجتمع الإسلاميّ وفي الساحة الدوليّة. وقـد نزل القرآن الكريم ـ وهو الكتاب السـماويّ الّذي لم يتعرّض للتحريف ـ من أجل هداية الناس وتلبية احتياجاتهم في كلّ عصرٍ، وبخاصّةٍ في عصرنا الراهن. وبما أنّ التفكير الإلحاديّ في العصر الحديث تسبّب بنتائج فكريّةٍ وسلوكيّةٍ وخيمةٍ في الساحة الاجتماعيّـة، وبخاصّةٍ في عقائد الجيل الجديـد، وأدّى إلى خلط الحقّ بالباطل، فقد سعينا في هذا المقال ـ الّذي يتّبع المنهج الوصفيّ التحليليّ ـ إلى أن نبيّن أساليب القرآن الكريم في التعامل مع ظاهرة الإلحاد في ضوء آياته في البُعد العلميّ والعمليّ، وتوصّلنا إلى أنّ نهـج القرآن في التعامل مع المخالفين والملحدين في البعد العلميّ هو عبارةٌ عن الحوار والسلوك، والدعوة إلى الإسلام، والتعريف بالحقائق، والتفكّر في نظام الخلقة، والإنذار، وفي البعد العمليّ هو التعامل بالحسـنى، والمداراة، والتهديد، والإعراض، والنهي عن الموالاة والصداقة، والحرمان من المشاركة في المجالات الاجتماعيّة والجهاد.

الكلمات المفتاحيّة: *مواجهة الإلحاد، القرآن، الكفر، الأساليب القرآنيّة، الشرك، الملحد.*

(*) الدكتور محمدعلي محيطي أردكان، إيران، أسـتاذٌ مساعدٌ في قسـم الفلسفة، مؤسّسة الإمام الخمينيّ للتعليم والأبحاث. hekmatquestion@gmail.com

The Quranic approach in confronting Atheism

Abstract:

The human society in its intellectual aspect is a blend of various and even contradictory ideas and beliefs. The word al-ilhad (atheism) and its equivalent terms denote one of the significant concepts of the network of Quranic knowledge. It's important to deal with the people of other beliefs and faiths properly, so we may maintain good relationships and friendly life in Muslim society and on the world stage. The holy Quran, the only scripture that has not been distorted, is descended for the guidance of people, and to fulfill their needs in every age, especially in the modern era. Given the fact that the atheistic thought in modern times has caused serious intellectual and behavioral consequences in the society, and specifically for young generation, and it has led to confusion between right and wrong, therefore, in this article we have tried to show the Quranic methods of dealing with the phenomenon of atheism in the light of its verses, both in scientific and practical aspects.

Keywords: confronting atheism, Quran, blasphemy, Quranic methods, Polytheism, atheist.

المقدّمة

كان الاعتقاد بالإلٰه ـ على امتداد التاريخ ـ معرضًا لمختلف الآراء والأفكار المختلفة والمتناقضة. وقد اعترف البعض بوجود الإلٰه وصاروا موحّدين، واعتنق بعضٌ وبأنحاءٍ مختلفةٍ عقائد ملوّثةً بالشرك أو برؤًى كفريّةٍ إمّا في أصل التوحيد، أو في الصفات الإلٰهيّة. وقد دعا الأنبياء جميعًا طول تاريخ البشريّة إلى عبادة الله واجتناب الطاغوت، وبُعثوا بذٰلك: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [سورة النحل: 36].

إنّ القرآن الكريم معجزة النبيّ الخاتم، وهو الكتاب الّذي لم يُصب بالتحريف، وإنّما نزل من أجل هداية الناس وتلبية احتياجاتهم في كلّ عصرٍ، وقد تعرّض في مستوًى واسعٍ من آياته لمسألة التوحيد الأساسيّة. وقد تسبّب التفكير الإلحاديّ في العصر الحديث بآثارٍ وخيمةٍ في حياة الناس، وفي الساحة الاجتماعيّة والعالميّة وبخاصّةٍ في عقائد الجيل الجديد، وأدّى إلى خلط الحقّ بالباطل، ولٰهذا ما يمنح البحث في الموضوع الراهن أهمّيّته ويجعله ضروريًّا. ومع أنّ العلماء والباحثين أشاروا في طيّات بعض مؤلّفاتهم الكلاميّة والتفسيريّة إلى أساليب القرآن في مواجهة الملحدين، لٰكن لم يدوَّن نتاجٌ مستقلٌّ ومنسجمٌ في هٰذا الموضوع على حدّ اطّلاعي، وكمثالٍ على ذٰلك نذكر بعض البحوث المؤلّفة في هٰذا المجال وهي: "بررسى تحليلى مواجهه ى قرآن با يهود" [دراسة تحليلية لمواجهة القرآن لليهود] لعلي أكبر مؤمني؛ "سيره ى پيامبر در برابر مخالفان از زبان قرآن" [سيرة النبيّ تجاه المخالفين برواية القرآن] لعلي محمد يزدي، و"أساليب القرآن الكريم في الردّ على الحملات الإعلاميّة"، د. نعيم رزق الدردساوي، و"الشرك بالله تعالى.. أنواعه وأحكامه"، ماجد محمد علي أحمد شبالة، وغيرها.

يتّبع المقـــال الحاليّ المنهج الوصفيّ التحليليّ في معالجة موضوع أســـاليب مواجهة القرآن للتفكير الإلحاديّ، ومن هنا فإنّ الســـؤال الأساسيّ في هٰذا البحث هو: ما أســـاليب القرآن الكريم في مواجهة الإلحاد والملحدين؟ ومن أجـــل الإجابة عن هٰذا الســـؤال يلزم في البدء بيان المـــراد من الإلحاد، وما الفرق بين الإلحاد والكفر والـــشرك؟ وهل هٰذه الثلاثة تمثّل أمرًا واحدًا، أم أنّ بينها علاقةً خاصّةً؟ وما طريقة تعامل القرآن ومواجهته للآراء المخالفة؟ وهل اســـتخدم القرآن أسلوبًا واحدًا، أم أساليب متنوّعةً؟ وما هي الأساليب العلميّة والعمليّة الّتي اتّخذها القرآن في مواجهة الإلحاد؟ هٰذه هي الأســـئلة الّتي ســـنجيب عنها ضمن البحوث الآتية. وفي البدء نتعرّض لبحث الإلحاد مفهومًا، ثمّ نتعرّض بعد ذٰلك لبعض أساليب مواجهة القرآن للإلحاد.

مفهوم الإلحاد

1 ـ الإلحاد لغةً

الإلحاد مأخوذٌ من مادّة "لحد"، «اللَّحْد: ما حُفِرَ في عُرْضِ القَبْر» [الفراهيديّ، كتاب العين، ج 3، ص 182]، «اللحد حفرةٌ مائلةٌ عن الوسط» [الأصفهانيّ، الراغب، المفردات في غريب القرآن، ص 737]، «اللُّحْد الشَّـــقُّ الّذي يكون في جانب القبر» [ابن منظور، لسان العرب، ج 2، ص 526]، ويعتقد البعض أنّ أصل الإلحاد بمعنى العدول والانحراف عن المستقيم [ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج 5، ص 236؛ ابن منظور، لسان العرب، ج 3، ص 389]، يقول الراغب: «ولحد بلســـانه إلى كذا مال، قال تعالى: ﴿لِسَـــانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ [سورة النحل: 103]» [الأصفهانيّ، الراغب، المفردات في غريب القرآن، ص 737]. وعليـــه يكـــون الإلحـــاد في اللغة بمعنى العدول، ومنه اللحد وهو الشـــقّ الجانبيّ في القبر، ويعني أيّ نوعٍ من

الانحراف عن الصراط المستقيم باتّجاه الكفر والشرك وما إلى ذٰلك.

2 ـ الإلحاد في الاصطلاح

يعتقد الراغب الأصفهانيّ أنّ الإلحاد ضربان: «[الأول]: إلحادٌ إلى الشرك بالله، و[الثاني]: إلحادٌ إلى الشرك بالأسباب، فالأوّل ينافي الإيمان ويبطله، والثاني: يوهن عراه ولا يبطله» [الأصفهانيّ، المفردات في غريب القرآن، ص 737].

ويعتقد آخرون أنّ الإلحاد في اصطلاح القدماء بمعنى التكذيب، وأيّ رجوعٍ عن طريق الحقّ والصواب، من قبيل العدول عن التوحيد إلى الشرك، وفي اصطلاح المتأخّرين بمعنى إنكار وجود الإله، ولازمه يعني إنكار الأديان، والأمور الغيبيّة. [شبالة، الشرك بالله تعالى.. أنواعه وأحكامه، ص 44]

يظهر ممّا تقدّم أنّ الإلحاد مستعملٌ في معنيين، عامٍّ خاصٍّ:

1. الإلحاد في المعنى الخاصّ يشمل إنكار وجود الإلٰه الواحد، وهو أخصّ معاني الإلحاد وأشهرها. وعلى هٰذا الأساس فإنّ الملحد هو الشخص الّذي لا يؤمن بوجود الإلٰه الواحد، وعلى هٰذا الأساس عدّوا الملحد دهريًّا، وهو الّذي ينسب الحوادث كلّها إلى الدهر، ويؤمن بأنّ الدهر هو المبدأ الأزليّ الأبديّ بدلًا عن الإلٰه الواحد.

2. الإلحاد في المعنى العامّ، يطلق على عدم الاعتقاد بأيٍّ من أصول العقائد الإسلاميّة، وعلى الرجوع عن الطريق الصواب، والسقوط في الضلال والضياع. وعليه فلو آمن شخصٌ بوجود الإلٰه الواحد، لٰكنّه أنكر أصلًا من أصول الإسلام، أو أنكر اعتقادًا من الاعتقادات أو الآراء المقبولة في

الإســـلام، فإنّه يُتَّهمُ بالإلحاد، ويُدعى ملحدًا [موسوى بجنوردى، دائرةالمعارف بزرگ اسلامى، مدخل "الحاد"]، وهٰذا المعنى من الإلحاد مرادفٌ للمعنى اللغويّ.

3ـ الإلحاد ومشتقّاته في القرآن

ورد الإلحاد ومشـــتقّاته ســـتّ مرّاتٍ في القرآن الكريم. حيث استُعمِلت كلمة "يُلحِدُون" ثلاث مرّاتٍ في القـــرآن بمعنى الانحراف في الآيات الإلٰهيّة والعدول عن الاستقامة:

أ ـ ورد في ســـورة فصّلت، الآية 40 ذِكرُ الّذيـــن انحرفوا عن آيات الله، وعدلوا عن الاســـتقامة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِـــدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾، يرى العلّامة الطباطبائيّ أنّ مصطلحي "يُلحِدون" و"آياتنا" في الآية الشريفة مطلقان إذ يقول: «وإطلاق قوله: "يلحدون" وقوله: "آياتنا" يشـــمل كلّ إلحادٍ في كلّ آيةٍ، فيشـــمل الإلحاد في الآيات التكوينيّة كالشمس والقمر وغيرهما، فيعدّونها آياتٍ لله سبحانه، ثمّ يعودون فيعبدونها، ويشمل آيات الوحي والنبوّة، فيعـــدّون القرآن افتراءً على الله وتقـــوّلًا من النبيّ ﷺ، أو يلغون فيه لتختلّ تلاوته فلا يسمعه سامعٌ، أو يفسّرونه من عند أنفسهم أو يؤوّلونه ابتغاء الفتنة، فكلّ ذٰلك إلحادٌ في آيات الله بوضعها في غير موضعها، والميل بها إلى غير مستقرّها» [الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، ج 17، ص 397].

ب ـ ورد في سورة الأعراف، الآية 180 ذكر الّذين يحرّفون في أسماء الله في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾.

ج ـ ورد في الآية 103 من ســـورة النحل "يلحدون" بمعنى الميل، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهٰذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾.

وكذلك استُعمِل مصطلح "مُلْتَحَدًا" مرتين في القرآن بمعنى الملجإ، ومحلّ المَيل، من قبيل الآية 22 من سورة الجنّ: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾، وكذلك في سورة الكهف، الآية 27: ﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾.

وأمّا مصطلح "الإلحاد" فقد استُعمِل مرّةً واحدةً في القرآن في معنى الانحراف: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [سورة الحجّ: 25].

ذكرت الآية 24 من سورة الجاثية مجموعةً من الناس لا يؤمنون بالمبدإ الحكيم في عالم الوجود، وأنّ حياة أيّ موجودٍ وموته ـ حتّى الإنسان ـ ترجع إلى الطبيعة، ويُطلق على هؤلاء مصطلح "الدهريّين" [الطبرسيّ، مجمع البيان، ج 9، ص 118؛ الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، ج 18، ص 174]، يخبرنا القرآن الكريم عن هؤلاء قائلًا: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [سورة الجاثية: 24]، وهناك احتمالان في تفسير هذه الآية:

أ ـ المقصود من هذا الفريق هم الّذين كانوا ينكرون أصل المبدإ، وكانوا يتواجدون بعددٍ ما في الحجاز إبّان العصر الجاهليّ.

ب ـ الآية بصدد الحديث عن عقيدة بعض جهّال العرب في إنكار المعاد. [جوادى آملى، توحيد در قرآن، ص 604؛ الرازيّ، الفخر، مفاتيح الغيب، ج 27، ص 678]، وقد اختار البعض الاحتمال الثاني بلحاظ سياق الآية؛ لأنّ الآيات السابقة لها لم تكن في معرض الحديث عن الدهريّين مطلقًا لكي نقول إنّ هذه الآية راجعةٌ إليهم. [الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، ج 18، ص 174]

4ـ المصطلحات المشابهة للإلحاد في الاستعمال القرآنيّ

أكــثر المصطلحــات قربًا في المعنى مــن مصطلح "الإلحــاد" مصطلحا "الكفــر" و"الشرك"؛ ومن أجل إيضاح معنى هٰذيــن المصطلحين نتحدّث باختصارٍ عن معناهما:

أ. الكفر

الكفر في الأصل بمعنى ســتر الشيء وتغطيتــه. [ابن منظور، لسان العرب، ج 5، ص 144؛ الأصفهانيّ، المفردات في غريب القرآن، ص 714]. ويطلَق على الليل، والفــلّاح، والّذي يُغطّي نعمة الله، كافرٌ [الأصفهانيّ، الراغب، المفردات في غريب القرآن، ص 714؛ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج 5، ص191]. الكفر ضد الإيمان؛ لأنّه يُغطّي الحقّ. وقد ورد في بعض الروايات استعمال الكفر في أربعة معانٍ:

1 ـ إنكار المبدإ والمعاد.

2 ـ إنكار الحقّ عن علمٍ.

3 ـ كفران النعمة.

4 ـ ترك الواجبات. [الكلينيّ، الكافي، ج 2، ص 389].

وأمّا رؤية العلماء في معنى الكفر الاصطلاحيّ فهي ليست واحدةً. فبعض العلمــاء جعله بمعنى عدم الإيمــان، وآخرون بمعنى إنــكار الربوبيّة، أو الوحدانيّة، أو الرســالة، أو الحكم الشرعيّ قولًا أو فعلًا [علم الهدى، الذخيرة في علم الكلام، ص 534؛ الطوسيّ، الاقتصاد فيما يتعلّق بالاعتقاد، ص 227؛ شبالة، الشرك بالله تعالى.. أنواعه وأحكامه، ص 44].

العلّامة الطباطبائيّ يبيّن في ذيل تفســير الآية 70 من ســورة آل عمران

أنّ: «الكفر بآيات الله غير الكفر بـــالله تعالى، وأنّ الكفر بالله هو الالتزام بنفي التوحيد صريحًـــا كالوثنية والدهريّة، والكفر بآيات الله إنكار شيءٍ من المعارف الإلٰهيّة بعد ورود البيان ووضـــوح الحقّ» [الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، ج 3، ص 255]. ومع أنّ له مصاديق عديدةً لٰكنّ المراد من الكفر في هٰذا البحث هو الكفر بمعنى نفي الله وإنكار وحدانيّته.

ب ـ الشِرك

يقول الراغب الأصفهانيّ: «شرك: الشركة والمشاركة خلط الملكين، وقيل هو أن يوجد شيءٌ لاثنين فصاعدًا عينًا كان ذٰلك الشيء أو معنًى، كمشاركة الإنسان والفرس في الحيوانيّة...، وشرك الإنسان في الدين ضربان. أحدهما: الشرك العظيم وهو إثبات شريكٍ لله تعـــالى...، والثاني: الشرك الصغير وهو مراعاة غير الله معه في بعض الأمور وهو الرياء والنفاق» [الأصفهانيّ، المفردات في غريب القرآن، ص 451 و452]. ويقالُ مشركٌ لمن جعل لله شريكًا.

ذهـــب البعض في التفرقة بين مصطلحي الإلحـــاد والكفر والشرك إلى أنّ الكفـــر أعمّ من الإلحاد، والإلحاد أحدُ شُـــعَب الكفـــر، وهو كفر الجحود، والفـــرق بين الإلحاد والشرك هو أنّ المشرك يعتقد بأنّ للعالم خالقًا، لٰكنّه لا يراه واحـــدًا، ويعبد معبودين آخرين مع الله، لٰكنّ الإلحاد ينكر وجود الله، والملحد هو الّذي ينكر وجود الله، وينســـب الخلقة إلى غير الله، وكذٰلك لا يعتقد بيوم القيامة [شبالة، الشرك بالله تعالى.. أنواعه وأحكامه، ص 45].

بناءً على هٰذا يكون المراد من الإلحاد معناه الخاصّ يعني إنكار وجود الإلٰه، وعليه فإنّ الملحد هو الشـــخص الّذي لا يؤمن بـــالله الواحد، وكذٰلك يقال ملحدٌ للدهريّ من جهة أنّه يقبل بالمبدإ الأزليّ والأبديّ للعالم بدلًا عن الإلٰه الواحد، وينسب الأحداث إلى الدهر.

أساليب مواجهة القرآن للملحدين

اتّخذت آيات القرآن أساليب مختلفةً في مواجهة الملحدين والتعامل معهم. وفي بعض الآيات نجد أسلوب دعوة الخصم إلى الإسلام، والحوار والتعامل بالحسنى، وتزويده بالمعرفة، وفي موطنٍ آخر ورد النهي عن مودّة الكفّار، والأمر بالإعراض عنهم، وفي آياتٍ أخرى وردت الدعوة إلى جهاد الأعداء والمعاندين، وأمر المسلمين بالتشدّد معهم. وهٰذه الأساليب المختلفة للتعامل ناشئةٌ من اختلاف الظروف، والأوضاع الزمانيّة والمكانيّة، ونوع المخاطَب من كفّارٍ، ومشركين، ومنافقين، وأهل الكتاب. وهنا نشير إلى أهمّ أساليب مواجهة القرآن الكريم للملحدين في البُعدين العلميّ والعمليّ:

1ـ أساليب مواجهة القرآن للملحدين في البعد العلميّ

وفي البدء نتعرّض لأسلوب القرآن في التعامل مع الملحدين في البُعد العلميّ والمعرفيّ:

أ. الدعوة إلى الإسلام عن طريق الحكمة والموعظة والجدال بالّتي هي أحسن

أحدُ الأساليب القرآنيّة في التعامل مع غير المؤمنين هي دعوتهم إلى الإسلام. وهو ما نجده في الآية 125 من سورة النحل؛ إذ يأمر الله ـ سبحانه ـ نبيّه ﷺ بدعوة الناس إلى الحقّ قائلًا: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾. ولأنّ مخاطبي النبيّ ﷺ مختلفون، فأساليب التعامل معهم مختلفةٌ أيضًا. وقوله: "بالحكمة" يعني ادعُ إلى ربّك بالكلام المُتقن والمحكم الّذي لا يمكن الخدش ولا التشكيك فيه. [الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن،

ج 12، ص 371 و372؛ الرازيّ، مفاتيح الغيب، ج 20، ص287] وبالموعظة الحسنة أي ادعُ الناس من خلال النصيحة المحبّبة إلى قلوبهم. والحكمة تتعامل مع العقل والفكر، والموعظة مع القلب. والجدال بالّتي هي أحسن هو الجدال القائم على أفضل أساليب المناظرة والمجادلة مع الرفق والمداراة واللين في الكلام من أجل تهدئة الخصومة معهم. [الآلوسيّ، روح المعاني، ج 7، ص 487]

ب. التعريف بالحقائق

من الأساليب الّتي اتّخذها القرآن في مواجهة الملحدين والجهّال، التعريفُ بالحقائق. وتعدّ معرفة الله من أرقى المعارف وأعظمها: «معرفة الله أعلى المعارف» [الآمديّ، غرر الحكم ودرر الكلم، ص 712]؛ إذ إنّ أساس الدين وحياة الناس قائمٌ على أساس هٰذه القاعدة. «إنّ أساس الدين التوحيد» [الصدوق، التوحيد، ص 96]، وكلّ معارف الدين وتعاليمه وأصول الدين كالاعتقاد بالوحي، ونبوّة الأنبياء، والمعاد و... تنشعب عن هٰذه المعرفة. ومع ذٰلك فقد ضلّ بعض الناس، واتّجهوا نحو اللادينيّة والشرك والكفر. وأهمّ دليلٍ للملحدين هو أنّهم لا يحسّون بالإلٰه، وما لا يكون محسوسًا لا يكون مقبولًا عندهم ولا يؤمنون به. وقد تصدى القرآن لهٰذه الرؤية من خلال زيادة المعرفة وتبيين الحقيقة، ونبّه إلى أنّ الملحدين غفلوا عن هٰذه النقطة، وهي أنّ إنسانيّة الإنسان ليست بجسده فقط، والإنسان يمتلك حقيقةً أخرى ـ بالإضافة إلى الجسم ـ وهي الروح، وبها يرتبط وجوده وحياته وموته. وبما أنّ الناس عاجزون عن معرفة الروح، فهم أشدّ عجزًا عن معرفة حقيقة الله ﷻ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [سورة الأنعام: 103]، والأدلّة العقليّة وكذٰلك النقليّة تدلّ على أنّ الله لا يمكن أن يُرى بالعين؛

لأنّ الله ليس موجودًا محدودًا له مــكانٌ وجهةٌ ومادّةٌ لكي يُرى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: 11]، وكذٰلك ورد التصريح بعدم إمكانيّة رؤية الله بعد طلب بني إسرائيل ذٰلك: ﴿قَالَ لَنْ تَرَانِي﴾ [سورة الأعراف: 143].

وقد تصدّى القرآن أحيانًا إلى التعريف بأصل مبدإ الوجود من قبيل قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّــمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ [سورة الطور: 35-36]، يطرح القرآن هٰذه الأســئلة ليثير فطرة الانسان؛ لكي يصل إلى الجواب الصحيح من خلال التدقيق والتأمّل فيها. وإذا خلق الإنسان نفسه، فمن خلق الســماوات والأرض الموجودتين قبل وجود الإنســان؟ فهل الإنسان هو من خلقهما؟ وهل للإنســان علّةٌ فاعليّةٌ أم لا؟ وإذا كان له علّةٌ فاعليةٌ، فهل هٰذه العلّة هي ذاته أم غيره؟ وإذا كان الإنســان هو العلّة الفاعليّة لذاته، فهل هو أيضًا العلّة الفاعليّة للأجرام الســماويّة؟ والقرآن من خلال طرحه لهٰذه الأسئلة يريد إيقاظ فطرة الإنسان ووجدانه، وأن يدفعه إلى الإقرار لكي يقول في الجواب بأنّ الإنسان له علّةٌ فاعليّةٌ، لٰكنّ هٰذه العلّة ليست ذاته؛ لأنّ الإنسان بما أنّه مخلوقٌ فإنّ له خالقًا حتمًا ، ولا يمكن أنّه هو من خلق نفســه، بل إنّ أيّ ظاهرةٍ لا يمكنها أن تخلق ذاتها، وإنّما هي بحاجةٍ إلى مبدإٍ موجودٍ دائمًا. وكذٰلك يعترف الإنســان بأنّه لا دور له في خلق الســماوات والأرض. [راجع: الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، ج 19، ص 20؛ جوادى آملى، توحيد در قرآن، ص 27 و28]

ج. تنبيه العقل إلى براهين إثبات الوجود الإلٰهيّ وأدلّته

تقديم البراهين على إثبات الأصول الاعتقاديّة، هو أحد أساليب القرآن في مواجهة الملحدين. وقد استفاد القرآن الكريم من هٰذا الأسلوب بأنحاءٍ مختلفةٍ

في تقديم العقائد الصحيحة للمخالفين. وقد احتجّ بهٰذا الأسلوب أحيانًا من أجل إثبات أصل وجود الإلٰه، وأحيانًا من أجل وحدانيّة الحقّ تعالى، وأحيانًا من أجل إبطال ما يعبده المشركون، وفي موضعٍ آخر في الاحتجاج على منكري المعاد والردّ عليهم وغير ذٰلك. وهنا نشير إلى بعض الاحتجاجات القرآنيّة:

تحدّث القرآن في آياتٍ كثيرةٍ مع منكـــري التوحيد، واحتجّ عليهم عبر الحوار. فمثلًا في الآيات 31 – 35 من ســـورة يونس، بعد الحديث عن آيات وجود الله، واســـتحقاقه العبادة يقول تعـــالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّـــماءِ والْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّـــمْعَ والْأَبْصارَ ومَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ويُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ومَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ ۞ فَذٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [سورة يونس: 31 و32]، وتستمرّ هٰذه الآيات لتعـــود للحديث عن المبدإ والمعاد، وتأمر النبيّ مرّةً أخرى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ثمّ يجيب القرآن عن هٰذا السؤال قائلًا: ﴿قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾[سورة يونس: 34]، وللمرّة الثالثة يأمر النبيّ قائلًا: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾. [سورة يونس: 35]

ومـــن الواضح أنّ الذين يعبدونهم المشركـــون لا يقدرون على هداية أحدٍ إلى الحقّ؛ لأنّ الهداية إلى الحقّ بحاجةٍ إلى العصمة والصيانة من الخطإ، وهٰذا لا يمكن تحققه إلّا بهداية الله وبتوفيقـــه، وعليه فإنّ الله وحده هو الهادي الى الحقّ: ﴿قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾، وفي الختام يبيّن استدلالًا محكمًا: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾.

ومن أجل إثبات توحيد إلٰه العالم استدلّ ببرهان التمانع، وهو من البراهين المتقنـــة في التوحيد: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَـــدَتَا﴾ [سورة الأنبياء: 22]،

والشـــكل المنطقيّ لبرهان التمانع باختصارٍ هو: أنّ فرض تعدّد الآلهة مســـاوٍ لفرض انهيار نظام الوجود، واللازم الذاتيّ للآلهة المتعدّدة هو انهيار انسجام العالـــم ونظمه، وهٰذا الأمر ممتنعٌ، والنتيجـــة هي أنّ تعدّد الآلهة والشرك في ربوبيّة الحقّ أمرٌ ممتنعٌ أيضًا.

ويُستند إلى برهان الخلق والإيجاد: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ﴾ [سورة النحل: 17]، وفي هٰذه الآية طُرح المسألة بصورة استفهامٍ، وتمّ إيكال الجواب عنها إلى الوجدان الحيّ. وعليه فإذا كان الله ـ سبحانه ـ هو من خلق الموجودات كلّها، إذن لا يصحّ أن نجعله أحد المخلوقات وفي مستوى شريكٍ لها. وهناك براهين أخرى من قبيل برهان المحبّة، والحركـــة، والنظم، والحياة والموت، والولاية وغيرها، أقيمت لإثبات واجب الوجود، وتوحيد الواجب، نترك التعرّض لها؛ تجنّبًا للإطالة في هٰذا المقال. [راجع: جوادى آملى، توحيد در قرآن، فصل اوّل]

وفي مقام الاحتجاج مع الّذين يعتقدون بأنّ لله ولدًا يقول: ﴿لَوْ أَرادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ سُبْحانَهُ هُوَ اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [سورة الزمر: 4]، «والبنوّة كيفما كانت تقتضي شركـــةً ما بين الابن والأب والولد والوالد، فإن كانت بنوّةً حقيقيّةً ـ وهي اشـــتقاق شيءٍ من شيءٍ وانفصاله منه ـ اقتضت الشركة في حقيقة الذات والخواصّ والآثار المنبعثة من الذات، كبنوّة إنســـانٍ لإنســـانٍ المقتضية لشركة الابن لأبيه في الإنسانيّة ولوازمها، وإن كانت بنوّةً اعتباريّةً كالبنوّة الاجتماعيّة ـ وهو التبنّي ـ اقتضت الاشتراك في الشؤونات الخاصّة بالأب، كالســـؤدد والملك والشرف والتقـــدّم والوراثة وبعض أحكام النسب، والحجّة المسوقة في الآية تدلّ على استحالة اتّخاذ الولد عليه ـ تعالى ـ بكلا المعنيين» [الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، ج 17، 236].

د. التفكّر في خلق العالم

أحد أســـاليب القرآن في التعامل مع الملحدين، هي دعوتهم وتشجيعهم على التفكّر في نظام الخلق. وبما أنّ الملحدين ينكرون دور الله في خلق نظام العالم، فقد ورد في عددٍ من الآيات الدعوة إلى التفكّر في خلق الســـماوات والأرض والنجـــوم والمياه والســـفن والناس والنباتـــات والحيوانات والجبال والبحار والأشـــجار وغيرها، وكذلك التفكير في الصفات الإلهية. مثلًا يبيّن القرآن في بعض الآيات أنّ لكلّ موجودٍ من الموجوداتِ إلٰهًا، وأنّ إلٰه الموجودات كلّها واحدٌ. ففي سورة البقرة، الآية 146 نقرأ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِما يَنْفَعُ النَّاسَ وَما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّـــماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهـــا وَبَثَّ فيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ وَالسَّحابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُون﴾.

وهنـــاك آياتٍ أخرى تذكـــر منكري العامل الإلٰهيّ في خلق الســـماوات والأرض، وتطالبهم بالتأمّل في خالق العالم من خلال طرح الأسئلة عليهم، وتدعوهم إلى التأمّل، ثمّ تجيب موضّحةً لهم من هو الأفضل، هل الله القويّ القادر، أم ما صنعته أيديكم من أصنامٍ لا حول لها ولا قوّة؟! والآيات 60ـ64 من ســـورة النمل تعرّضت لأوضح أدلّة التوحيـــد في خمس آياتٍ، من خلال طرح هٰذه الأســـئلة: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ والْأَرْضَ وأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَـــجَرَها أَإِلٰهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۞ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرارًا وجَعَـــلَ خِلالَها أَنْهارًا وجَعَلَ لَها رَواسِيَ وجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزًا أَإِلٰهٌ مَـــعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ۞ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ ويَكْشِفُ السُّوءَ ويَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ أَإِلٰهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ ۞ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ والْبَحْرِ ومَنْ يُرْسِـــلُ الرِّياحَ بُـــشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلٰهٌ مَعَ

اللهِ تَعالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ومَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ والْأَرْضِ أَإِلٰهٌ مَعَ اللهِ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ [انظر: الطبرسيّ، مجمع البيان، ج 7، ص 358؛ الرازيّ، الفخر، مفاتيح الغيب، ج 24، ص 563؛ مكارم شيرازى، ناصر، تفسير نمونه، ج 15، ص 513]. وهناك آياتٌ آخر من قبيل: الأنعام: 95ـ 99؛ الرعد: 2ـ4؛ الواقعة: 57ـ62، 68ـ70، 71ـ74 تشير إلى هٰذا المعنى.

2ـ أساليب مواجهة القرآن للملحدين في البعد العمليّ

أ. التعامل الحسن ورعاية الأدب

تشتمل التعاليم القرآنيّة أسلوب التعامل مع الكفّار والملحدين، وأنّه يجب أن يكون بأفضل أسلوبٍ ممكنٍ. ودفع السوء بالّتي هي أحسن هو من أساليب القرآن في مواجهة السوء، وأنّه في مقابل الأمر السيئ يجب تقديم الأمر الحَسَن، وهٰذا السلوك ينتهي إلى تحويل العدو إلى وليّ حميم: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [سورة فصّلت: 34]، وكذٰلك يقول النبيّ الأكرم ﷺ في هٰذا المضمار: «اصْنَعِ الْخَيْرَ إِلَى أَهْلِهِ وَإِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ فَكُنْ أَنْتَ أَهْلَه» [ابن طاووس، إقبال الأعمال، ج 1، ص 213].

رعاية الأدب أمرٌ ملحوظٌ في سيرة الأنبياء الإلٰهيّين في تعاملهم مع الأعداء. ومن نماذج ذٰلك ما ورد في سورة الآية 46 من سورة مريم، حيث كان آزر يتحدّث مع إبراهيم عليه السلام بلغة التهديد، لٰكنّ إبراهيم عليه السلام كان يردّ عليه بكلّ أدبٍ. وحينما نصح إبراهيم عليه السلام آزر بالكفّ عن عبادة الأوثان الّتي لا تسمع ولا ترى، لا نجد أيّ تأثيرٍ لكلام إبراهيم عليه السلام في آزر، بل على العكس

أثارته تلك النصائح فردّ عليه قائلًا: ﴿قالَ أَراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهيمُ﴾، ثمّ يهدّد إبراهيم عليه السلام بالرجم ويطلب منه أن يرحل عنه قائلًا له: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾، لٰكنّ إبراهيم يجيب عن هٰذه الخشونة والحدّة بكلّ عطفٍ: ﴿قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا﴾ [سورة مريم: 47]. طبيعيٌ أنّ هٰذا التعامل اللّين أمرٌ مطلوبٌ ما لم يؤدِّ إلى التساهل مع الأعداء ومنحهم الفرصة للاعتداء على المؤمنين.

ب. المداراة واللين

تعامل القرآن مع الملحدين بأسلوب المداراة واللين من أجل جذب انتباههم. وقد أوصى الله موسى وهارون عليهما السلام حينما ذهبا إلى فرعون أن يتحدّثا مع عدوّهما اللدود بلينٍ؛ لعلّ نافذةً تُفتح في قلبه نحو الله والاهتداء إلى الحق: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [سورة طٰهٰ: 44]. ومن آداب الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يتمّ ذٰلك بمنتهى اللين واللطف؛ حتّى يتقبّل الناس الدعوة بأسرع ما يمكن [الطبرسيّ، مجمع البيان، ج 7، ص 20؛ الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، ج 14، ص 154]، و«اللين ضدّ الخشونة، ويستعمل ذٰلك في الأجسام، ثمّ يستعار للخلق وغيره من المعاني» [الأصفهانيّ، الراغب، المفردات في غريب القرآن، ص 752].

وفي آيةٍ أخرى يأمرنا الله ـ سبحانه ـ بالتحدّث مع الناس بالحسنى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [سورة البقرة: 83]. وفي روايةٍ مرويّةٍ في التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكريّ عليه السلام في ذيل هٰذه الآية: «﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ﴾ كلّهم ﴿حُسْنًا﴾ مؤمنهم ومخالفهم؛ أمّا المخالفون فيكلّمهم بالمداراة لاجتذابهم إلى الإيمان، فإن ييأس من ذٰلك يكفّ شرورهم عن نفسه، وعن إخوانه

المؤمنـــين» [العسكريّ، التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكريّ عليه السلام، ص 353 و354؛ البحراني، البرهان في تفسير القرآن، ج 1، ص 266].

ولم يقتصر الأمر على أوامر الله بمداراة المخالفين والتعامل معهم باللين، بل في بعض الموارد وردت التوصية إلى المؤمنين بالإحسان إلى من لم يحاربوهم، قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [سورة الممتحنة: 8]. نعم هٰذا الأمر في التعامل مع من لا يعادي الإســـلام، وأمّا الّذين يعادون المسلمين، فيجب عدم مودّتهم: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُـــمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [سورة الممتحنة: 9].

ج. التهديد الأخرويّ

أسلوب التهديد الأخرويّ هو أســـلوبٌ قرآنيٌّ آخر في مواجهة الملحدين، وغالبًـــا ما يكون تهديدًا بالعذاب الإلٰهيّ. يذكّر الله ســـبحانه في الآية 40 من سورة فصّلت فريقًا من المتمرّدين عن الإيمان بالآيات الإلٰهيّة والملحدين بها قائلًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِـــدُونَ فِي آياتِنا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا﴾، وهٰذا نوعٌ من التهديد بالعـــذاب [الطوسيّ، التبيان في تفسير القرآن، ج 9، ص 129؛ الطبرسيّ، مجمع البيان، ج 9، ص 22؛ الحجازيّ، التفسير الواضح، ج 3، ص 344]. ذهـــب بعـــض المفسّرين ومنهم ابن عبّاسٍ إلى أنّ المراد من الآيات هي أدلّة التوحيد، والمراد من الإلحاد هو الانحراف عن التوحيد، وترك الاستدلال عليه [الطبرسيّ، مجمع البيان، ج 9، ص 22]. ثـــمّ يقرّع الله الملحدين ويخاطبهم مُهدّدًا: ﴿أَفَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾، وهذا الاستفهام التقريريّ في الآية الشريفة يعني أنّ

هٰذين الفريقين لا يتســـاويان مطلقًا. [الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، ج 17، ص 397] ثمّ يرفع وتيرة التهديد والوعيد قائلًا: ﴿اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ﴾، و"اعملوا" أمرٌ لٰكنّه بمعنى التهديـــد والوعيد [درويش، إعراب القرآن وبيانه، ج 8، ص 569؛ الأندلسي، أبو حيّان، البحر المحيط في التفسير، ج 9، ص 309]، يعني بعد أن علمتم أنّ هٰذين الفريقين لا يتساويان مطلقًا، فكلّ واحدٍ منكم حرٌّ في اختيار الأمر الّذي يريده من هٰذيـــن الأمرين. ومن الواضح أنّ الانســـان العاقل لا يختار السقوط في النار، وعليه سوف يؤمن بالآيات الإلٰهيّة، ولا يُلحد قِبال القرآن [الطبرسيّ، مجمع البيان، ج 9، ص 23؛ الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب، ج 27، ص 568]. وفي بعضٍ آخر مـــن الآيات يذكر كفّارًا كذّبوا بالتوحيد ويوم القيامة، فيخاطبهم القرآن قائلًا: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [سورة المزّمّل: 11]، ومهّلهم قليلًا يعني أنّ حســـابهم وعقابهم عندي [الطبرسيّ، مجمع البيان، ج 10، ص 573؛ الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج 20، ص 67]. أو في الآية 26 من سورة القمر، نجد تهديدًا بنحوٍ آخر للمكذّبين برسالة صالحٍ عليه السلام قائلًا: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَـــنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾، يعني سريعًا وفي يـــوم القيامة حينما ينزل عليهم العذاب ســـيعلمون من كان كذّابًا، أصالـــحٌ عليه السلام أم هم؟! وهل هو الّذي كان متكبّرًا أم هـــم؟ [الطوسيّ، التبيان في تفسير القرآن، ج 9، ص، 453؛ الطبرسيّ، مجمع البيان، ج 9، ص 289؛ الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، ج 19، ص 80].

فالإنذار بالعقوبة الإلٰهيّة أحد أســـاليب القـــرآن العامّة في تربية الناس وهدايتهم، والقـــرآن في مواجهة الملحدين والكفّار اســـتفاد أيضًا من هٰذا الأســـلوب، مثلًا في الآية 124 من سورة الأنعام يقول: ﴿وَإِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ سَيُصيبُ الَّذينَ أَجْرَمُوا صَغارٌ عِنْدَ اللهِ وعَذابٌ شَديدٌ بِما كانُوا يَمْكُرُونَ﴾. هٰذا الإنذار شديدٌ إلى

مســـتوى أنّه يهدّد الكفّار بأنّه لا ينفع في الخلاص منه يوم القيامة أيّ فديةٍ مهما عظُمت: ﴿إِنَّ الَّذينَ كفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَميعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذابِ يَوْمِ الْقِيامَةِ ما تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة المائدة: 36].

د. الإعراض واليأس من الملحدين

هو أسلوبٌ آخر من أساليب القرآن في التعامل مع المنكرين والكفّار بعد اليأس منهم وجحودهم، وهو أمر المســـلمين بالإعراض عنهم والنفور منهم. وهٰـــذا ما تمّ بيانه بصراحـــةٍ في بعض الآيات: ﴿إِنَّ الَّذينَ كفَرُوا سَـــواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُـــمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُـــونَ﴾ [سورة البقرة: 6]. وقد ورد هٰذا المضمون نفســـه في الآية 10 من سورة يس؛ لأنّ الله ختم على قلوبهم وسمعهم، ووضع على أعينهم غشـــاوةً. ويطلب الله ﷻ من نبيّه ﷺ ألّا يحزن لعدم إيمانهم: ﴿وَمَـــنْ كفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْـــرُهُ﴾، ويأمره بأن يبلّغ علانيةً مـــا أُمِر بتبليغه، وألّا يتأثّر بضجيج المشركين، وليس ذٰلك فحســـب، بـــل أن يُعرض عنهم ويتجاهلهم: ﴿فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكينَ﴾ [سورة الحجر: 94]. وفي هٰذا المضمون نفســـه وردت آياتٌ أخرى تطالب النبيّ ﷺ بصراحةٍ أن يتّبع التوحيد وأصول شرائع الدين الّتي أوحيت إليه، وأن يُعرض عن المستكبرين والمشركين، وألّا يبالي بعـــدم خضوعهم لكلمة الحقّ وبتهمهم الباطلة: ﴿اتَّبِعْ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة الأنعام: 106]. وقد ورد الإعراض عن المشركين في الســـور المكّيّة والمدنيّة أيضًا، لٰكنّ أكثر أوامر الإعراض واردةٌ في بعض آيات الســـور المكّيّة، منها: ســـورة السجدة: 30، سورة الصافّات: 174 و178، سورة الحجر: 3 و94، سورة الكافرون: 6، سورة الأنعام: 68.

وهناك آياتٌ أخرى تأمر النبيّ ﷺ بالإعراض عن استهزاء المشركين وترك مجالسهم: ﴿وَإِذا رَأَيْتَ الَّذينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَديثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة الأنعام: 68]. يقول السيوطيّ: «كان المشركون يجلسون إلى النبيّ ﷺ يحبّون أن يسمعوا منه، فإذا سمعوا استهزؤوا، فنزلت: ﴿وَإِذا رَأَيْتَ الَّذينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾» [السيوطيّ، الدرّ المنثور، ج 3، ص 21 و22].

وفي آياتٍ أخرى ورد أيضًا الإعراض عن المشركين كما في الآيتين 28 و29 من سورة النجم: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۞ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَياةَ الدُّنْيا﴾، والإعراض عن المنافقين في الآية 95 من سورة التوبة: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

هـ. النهي عن موالاة ومودّة الملحدين والكفّار

ورد في القرآن الكريم نهي المؤمنين عن مولاة ومودّة الكفّار والمشركين مرّاتٍ عديدةً. منها الآية 28 من سورة آل عمران: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ﴾. وسبب النهي عن موالاة الكفّار هو أنّها تؤدّي إلى الامتزاج الروحيّ «بحيث يؤدّي إلى مطاوعتهم والتأثّر منهم في الأخلاق، وسائر شؤون الحياة وتصرّفهم في ذٰلك» [الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، ج 3، ص 151].

وفي أوائل آيات سورة الممتحنة حيث ورد نهي الله للمؤمنين عن اتّخاذ الكفّار أولياء، وطلب المعونة منهم: ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي

وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ﴾ [سورة الممتحنة: 1]. وسبب هٰذا المطلب هو كفرهم بما جاءكم من الحقّ [الطبرسيّ، مجمع البيان، ج 9، ص 405؛ الطبرسيّ، تفسير جوامع الجامع، ج 4، ص 277؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 28، ص 121]. «إنّهم يخالفونكم في العقيدة، كما أنّهم شنّوا عليكم الحرب عمليًّا، ويعتبرون إيمانكم بالله ـ الّذي هو أكبر فخرٍ لكم وأعظم قداسة تجلّلكم ـ غاية الجرم وأعظم الذنب؛ ولهٰذا السبب قاموا بإخراجكم من دياركم وشتّتوكم من بلادكم. ومع هٰذه الأعمال الّتي مارسوها معكم، هل من المناسب إظهار المودّة لهم» [مكارم الشيرازي، تفسير الأمثل، ج 18، ص 233]. نعم، لم يرد نهيٌ عن الإحسان ورعاية العدل مع أولٰئك الكفّار الّذين لم يؤذوا المؤمنين، ولم يخرجوهم من ديارهم. [الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، ج 19، ص 234]

و. الحرمان من المشاركة في المجالات الاجتماعيّة

من الأساليب الّتي اتّخذها القرآن في مواجهة الكفّار والملحدين الحرمان من ممارسة بعض النشاطات الاجتماعيّة والدينيّة. وهٰذا التعامل يرتبط بالمشركين الّذين يتصوّرون أنّهم من خلال الاعتقاد بالله ﷻ يمكنهم الحفاظ على هويّتهم من خلال تسنّم مناصب من قبيل عمارة بيت الله أو سقاية الحجّاج. لٰكنّ الله ﷻ من خلال إعلان منع المشركين من الوصول إلى مناصب دينيّةٍ وإلٰهيّةٍ يكون قد حرمهم من المشاركة في المجالات الاجتماعيّة: ﴿مَا كانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَساجِدَ اللهِ شاهِدِينَ عَلى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خالِدُونَ﴾ [سورة التوبة: 17]. وعليه فإنّه: «لا يحقّ وَلا يجوز للمشركين أن يرموا ما استرمّ من المسجد الحرام» [الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، ج 9، ص 200؛ الزمخشريّ، الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل، ج 2، ص 253].

ز. التعامل الشديد الحازم مع الكفّار والمنافقين

رغم أنّنا نجد في القرآن الكريم آياتٍ دعت المسلمين إلى ترك القتال، وتحمّل كلّ أنواع الأذى في سبيل الله، من قبيل: ﴿قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ * لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ * ... لَكُمْ دينُكُمْ وَلِيَ دينِ﴾ [سورة الكافرون: 1-6] وكذلك قوله: ﴿فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ﴾ [سورة المزّمّل: 10]. لكن مع ذلك هناك آياتٌ أخرى تنهى المسلمين عن التسامح مع الكفّار والمنافقين، وقد أُمروا بالتعامل الشديد مع مشركي مكّة. مثلًا في الآية 190 من سورة البقرة يأمر الله بقتال مشركي مكّة مع توفّر ظروف القتال: ﴿وَقاتِلُوا في سَبيلِ اللهِ الَّذينَ يُقاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدينَ﴾ [سورة البقرة: 190]. «عبارة "الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ" تدلّ بصراحةٍ على أنّ هٰذا الحكم الشرعيّ يختّص بمن شهروا السلاح ضدّ المسلمين، فلا تجوز مقاتلة العدوّ ما لم يشهر سيفًا ولم يبدأ بقتالٍ باستثناء موارد خاصّةٍ» [مكارم الشيرازيّ، تفسير الأمثل، ج 2، ص 18؛ القاسميّ، محاسن التأويل، ج 2، ص 57]. ولٰكنّ هٰذا لا يعني إطلاقًا إنكار الجهاد الابتدائيّ.

وحينما لا تنفع النصيحة معهم، ولم يكفّ مثيرو الفتنة عن أعمالهم، واستمرّوا في إشاعة الاضطراب في المجتمع، فهنا يكون المجتمع الإسلاميّ مضطرًّا للتعامل الشديد مع مثل هٰؤلاء الأشخاص؛ لكيلا تتحوّل الساحة الاجتماعيّة إلى ساحة اضطرابٍ وفتنةٍ. [راجع: الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، ج 2، ص 64] والقرآن الكريم في هٰذه المرحلة من الفتنة يُصدر أمرًا بقتال مثيريها قائلًا: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [سورة البقرة: 191]، ويقول أيضًا: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّٰهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [سورة

البقرة: 193]. وقــد ذهب أكثر المفسرين إلى أنّ الفتنــة في هٰذه الآية يراد منها الشرك أو الكفر [الطوسيّ، التبيان في تفسير القرآن، ج 2، ص 146؛ الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب، ج 5، ص 289؛ القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن، ج 2، ص 354].

وعليه فإذا وصلت إثارة الفتنة إلى مرحلة ســلب الأمن والاستقرار، فقد أمر الله ـ ســبحانه ـ بقتال مثيري الفتنة والتصدّي لهم، وإطفاء الفتنة في هٰذه المرحلة مسؤوليّة الجميع، بل عدم التصدّي لمثيري الفتنة أمرٌ غير جائزٍ، وعصيانٌ لأمر الله تعالى.

وفي ســورة الآية 73 من سورة التوبة، والآية 9 من سورة التحريم ورد أمرٌ للنبيّ بأن يتشدّد مع الكفّار والمنافقين: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾. «جهاد القوم ومجاهدتهم بذل غاية الجهد في مقاومتهم، وهو يكون باللســان وباليد حتّى ينتهي إلى القتال، وشاع استعماله في الكتاب في القتال...، واســتعماله في قتال الكفّار على رسله لكونهم متجاهرين بالخلاف والشــقاق» [الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، ج 9، ص 339]. وأمّا المنافقون فإنّ «المراد بجهادهم مطلق ما تقتضيه المصلحة من بذل غاية الجهد في مقاومتهم، فإن اقتضت المصلحة هجروا ولم يخالطوا ولم يعاشروا، وإن اقتضت وعظوا باللســان، وإن اقتضت أخرجوا وشرّدوا إلى غــير الأرض، أو قتلوا إذا أخذ عليهم الردّة، أو غير ذٰلك» [المصدر السابق].

النتيجة

تصدّى هٰذا البحث لدراسة الأســاليب العلميّة والعمليّة في التعامل مع الملحدين في الرؤية القرآنيّة، وتوصّل إلى هٰذه النتائج:

أســـلوب القرآن في مواجهـــة المخالفين في البُعد العلـــميّ هو الدعوة إلى الإســـلام عن طريق الحكمة والموعظة الحســـنة والجدال بالّتي هي أحسن، وبيان الحقائق، والتفكّر في خلـــق العالم، والاحتجاج على منكري التوحيد والمعاد وإنذارهم. وفي البُعد العمليّ فالأصل هو السلوك الحسن ورعاية الأدب، وعند الإصرار على إنكارهم فيتمّ الإعراض عنهم، والمنع من موالاتهم وأخيرًا إذا كانوا محاربين فيجب جهادهم والتعامـــل القاطع معهم. ومن الطبيعيّ أنّ اختلاف أساليب القرآن في التعامل العلميّ والعمليّ مع المخالفين والملحدين يرجع إلى الظروف ونوع سلوك المخاطبين.

قائمة المصادر

القرآن الكريم

1. ابــن بابويه (صدوق)، محمد بن علي، التوحيد، جامعة المدرســين، قم، ط 1، 1398 هـ.
2. ابن عاشــور، محمد بن طاهر، التحرير والتنوير، [بدون محل الطباعة]، بدون تأريخ.
3. ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة، مكتب الاعلام الاسلامي، قم، ط 1، 1404 هـ.
4. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ دار صادر، بيروت، ط 3، 1414 هـ.
5. الأندلسي، محمد بن يوســف، البحر المحيط في التفسير، دار الفكر، بيروت، 1420 هـ.
6. البحراني، هاشم بن سليمان، البرهان في تفســير القرآن، مؤسسه بعثت، قم، ط1، 1374 هـ. ش.
7. التميمي الآمدي، عبد الواحد بن محمــد، غرر الحكم ودرر الكلم، دار الكتاب الإسلامي، قم، ط 2، 1410 هـ.
8. جوادي آملي، عبدالله، تفســير موضوعى قرآن (توحيــد در قرآن)، مركز نشر اسراء، قم، ط 2، 1385 هـ. ش.
9. الحجازي، محمد محمود، التفســير الواضح، دار الجيــل الجديد، بيروت، چاپ دهم، 1413 هـ.
10. درويش، محي الدين، إعراب القرآن وبيانه، دار الإرشاد، سوريا، ط 4، 1415 هـ.
11. الرازي، محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3،

1420 هـ.

12. الراغب الأصفهاني، حســين بن محمد ، المفردات في غريب القرآن، دار العلم الدار الشامية، دمشق بيروت، ط1، 1412 هـ.

13. الزمخشري، محمود، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 3، 1407 هـ.

14. شــبالة، ماجد محمد علي، الشرك بالله تعالى.. أنواعــه وأحكامه، دار الإيمان، الإسكندرية، 2005 م.

15. الطباطبائي، محمدحســين، الميزان في تفســير القرآن، دفتر انتشارات اسلامى جامعه مدرسين حوزه علميه قم، قم، ط 5، 1417 هـ.

16. الطبرسي، الفضل بن الحسن، تفسير جوامع الجامع، انتشارات دانشگاه طهران و مديريت حوزه علميه قم، طهران، ط 1، 1377 هـ ش.

17. الطبرسي، الفضل بن الحســن، مجمع البيان في تفسير القرآن، انتشارات ناصر خسرو، طهران، ط 3، 1372 هـ ش.

18. الطوسي، محمد بن الحســن، الاقتصاد فيما يتعلــق بالاعتقاد، بيروت، ط 2، 1406 هـ.

19. الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تأريخ.

20. العسكري، الحسن بن علي، التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام، مدرسة الإمام المهدي عجل الله فرجه، قم، ط 1، 1409 هـ.

21. علم الهدى، على بن الحسين الموســوي البغدادي [السيد المرتضى]، الذخيرة في علم الكلام، قم، 1411 هـ.

22. علم الهدى، على بن الحسين، أمالي المرتضى، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1998 م.

23. الفراهيـــدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، انتشـــارات هجرت، قم، ط 2، 1410 هـ.

24. فضل الله، محمدحسين، الحوار في القرآن، [بدون محل الطباعة]، ط 1، 1399 هـ.

25. القاســـمي، محمد جمال الدين، محاســـن التأويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418 هـ.

26. القرطبي، محمد بن أحمـــد، الجامع لأحكام القرآن، انتشـــارات ناصر خسرو، طهران، ط 1، 1364 هـ ش.

27. الكليني، محمد بن يعقوب بن إســـحاق، الكافي، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط 4، 1407 هـ.

28. مكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، مدرسة الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، قم، ط 1، 1421 هـ.

29. مكارم الشـــيرازي، ناصر، تفسير نمونه، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط 1، 1374 هـ ش.

30. موســـوى بجنوردى، [بإشراف:] كاظم، دائرةالمعارف بزرگ اسلامى، طهران، سازمان انتشارات وزارت فرهنگ و ارشاد اسلامى، ط 1، 1384 هـ ش.